

المظهر البديعي - محاولة تأصيلية

The Aspect of Articulation and Meaningful Improving
Rooting Attempt

أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني Pro.Dr. Ayaad Al hamadani

هدى صيهود زرזור العمري Huda Saihood Zarzoor Alomari

جامعة ديالى

كلية التربية للعلوم الإنسانية

Diala University

College of Education for Humanitarian sciences

الكلمة المفتاح : المظهر البديعي

إيميل الباحث : metonymyman@yahoo.com

إيميل الباحثة : Khalidalali1976@yahoo.com

ملخص البحث باللغة العربية

يتناول هذا البحث تأصيل المظهر البديعي في التراث العربي من وجهة نظر أسلوبية تجديدية قائمة على مستويات الإجراء النقدي الصوتية والتركيبية والدلالية وتحفيز مقومات الإبداع للوصول إلى مفهوم جامع محدد يمثل نقطة الارتكاز لتأكيد المعاني وإقامة علاقات تؤكد عمق المفاهيم التي جاء بها أسلافنا المفكرون العظماء. * بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة بـ ((المظاهر البديعية وأثرها الأسلوبية في التعبير القرآني)).

المقدمــــة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإنَّ قضية تحرير المصطلح تفرض سلطتها العلمية على الباحث والناقد؛ وصولاً إلى فهم جامع محدد يرصدُ من خلاله مديات التشابه والاختلاف في المفاهيم؛ ومن ثَمَّ المناقشة المنطقية التي تُسفر عن نتائج دقيقة يتوخاها البحث، ومصطلح (المظهر البديعي) أحد أهم المفاهيم التي اقترنت بإجراءات التحليل الأسلوبي، بوصفه شحنة لافئة تستقطب العلاقات السياقية التي يبحث فيها، مما يحفز التأمل تجاه تلك العلاقات اللغوية داخل نسيج (النص)؛ وقد تعاملت منهجية البحث مع المقطوعات والمشاهد بالطريقة التي يُتَعامل فيها مع النص ترصيناً للإجراء النقدي.

إن منظومة المصطلحات التي يظهرها النمط البلاغي بعلومه الثلاثة: (المعاني، البيان، البديع) لا يمكن أن تشكل مظهراً في كل الأعمال الإبداعية؛ بل تحقق منجزاً أسلوبياً يمكن أن يمثل ميداناً لرصد عدد من المصطلحات التي تشتغل في منظومة التعبير؛ لتحقيق ما يعرف بـ(المظهر).

استند البحث إلى مجموعة من مصادر التراث الإبداعي النقدي العربي الأصيل ولقيات من المراجع؛ لتحديد المداخل والكشف عن الماهية وتحديد أصالة مفهوم المظهر من خلال المعايير الصوتية، والتركيبية، والدلالية.

أولاً : المظهر / الماهية والمعايير :

اقترن مصطلح (المظهر) بإجراءات التحليل الأسلوبي؛ بوصفه شحنة لافتة تستقطب العلاقات السياقية التي يبحث فيها علم اللسانيات، والمصطلح البديعي أو البياني أو التركيبي يحفز التأمل تجاه تلك العلاقات اللغوية داخل نسيج (النص)؛ وقد يتعامل المظهر الأسلوبي مع المقطوعات والمشاهد بوصفها نصوصاً؛ لأن منظومة المصطلحات التي يظهرها النمط البلاغي بعلومه الثلاثة: (المعاني، البيان، البديع)، لا يمكن أن يشكل مظهراً في كل الأعمال الإبداعية؛ بل تحقق منجزاً أسلوبياً لرصد عدد من المصطلحات تشتغل في منظومة التعبير؛ لتحقيق ما يعرف بـ (المظهر).

أ- المظهر في اللغة والاصطلاح :

أجمعت معاجم اللغة العربية على ارتباط مادة (ظَهَرَ) بدلالة الوضوح والبيان الذي لا خفاء فيه، على الرغم من تعدد معانيها، وإلى ذلك أشار الخليل بن أحمد (ت 175هـ) حين أكدَّ أنَّ الظهور يحيل على معنى ((بدو الشيء الخفي، إذ يُقال ظَهَرَ الشيء يظهره فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرز، فهو يجمعُ بين البرُوز والقوة))⁽¹⁾، ويلحظُ مما سبق أنَّ (الظَّاء والهَاء والرَّاء) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوة وبروزٍ⁽²⁾، وكلُّ شيء ظاهرٌ خلافٌ للباطن⁽³⁾، ويُقال ظَهَرَ في القرآن واستظهره أي: بيَّنه وأوضحه⁽⁴⁾، وهو ما ذهب إليه الجوهري (ت 398هـ) والفيروزآبادي أيضاً⁽⁵⁾. وكذلك أورده ابن منظور (ت 711هـ) بقوله : ((هو الذي ظَهَرَ فوق كُلِّ شيءٍ وعلا عليه بآثاره وأفعاله وأوصافه))⁽⁶⁾، ويشير المعجم الوسيط إلى أنَّ المظهر هو ((الصورة التي يبدو عليها الشيء والجمعُ مظاهر، وأظهرته على الأمر اطلعتُهُ عليه))⁽⁷⁾، ففي اللغة المحدثَة تدل الظاهرة على الأمر الناجم بين الناس، أي يبرز ويشتهر في مجال الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع أو غير ذلك من المجالات المختلفة⁽⁸⁾.

بذل الدكتور صلاح فضل جهداً ليس باليسير في محاولة ضبط المصطلح في سياق حديثه عن الأشكال البديعية والمظاهر ودورها في تحديد الأسلوب، بعد أن عاب على البلاغيين القدماء كيفية توظيف هذه المظاهر وتحليلها وتصنيفها، وشرح مواقف أدائها الأسلوبي، مؤكداً أنَّ كلمة الشكل البلاغي أو المظهر تطلق على

((الصيغة الكلامية التي تتسم بحيوية أشد من اللغة العادية، وتهدف إلى جعل الفكرة محسوسة عن طريق المجاز، كما تلفت النظر بدقتها وأصالتها))⁽⁹⁾ وبذلك تركت البلاغة العربية القديمة إرثاً هائلاً من المظاهر والأشكال التي تمثل نظرية (الزخرف أو الزينة) تتماز بقيمة جمالية أو تعبيرية خاصة ((وبعض هذه المظاهر يعود إلى اللفظ مثل الجناس، وبعضها يعود إلى الجمل والعلاقات النحوية مثل القلب ورد العجز على الصدر، وآخر يعود إلى الدلالة))⁽¹⁰⁾ إلا أن هذه الأشكال بمجملها ليست زينة سهلة يسيرة تلون الأسلوب، ولا شاقة عسيرة تعقده وتكلفه؛ بل هي أدوات إجرائية ترتقي بمستوى الأسلوب إلى الإبداع اللغوي والأدبي.

يؤكد تعبیر الدكتور صلاح فضل أن مصطلح (المظهر) في علم الأسلوب يساعدنا على فك شفرة النص، وإدراك كيفية أدائه الوظيفي؛ لأنه يشير إلى الملمح التعبيري البارز الذي يؤدي وظيفة دلالية تفوق مجرد دوره اللغوي، ويبدو واضحاً أن المعنى اللغوي ينسجم مع المعنى الاصطلاحي، وهذا يؤكد أصالة المصطلح وفاعليته في التعبير.

أما الدكتور نفيد كرمانى* فيرى أن مفهوم المظاهر الفنية يتقارب مع تركيبات الرموز اللغوية أو ما يعرف عادةً بـ(الأسلوب) أو (النظم) في الاصطلاح العربي القديم، مما يولد انفعالاً جمالياً في نفس المتلقي ((يحدث عموماً من خلال إعادة تشكيل لغة الخطاب بوعي تام، أي من خلال حركة التوازي بين الجمل، وأنواع القوافي، والتكرار، والإحالة عنصر متقدم في النص وما شابه ذلك))⁽¹¹⁾ وقد اشترط للمظهر ضرورة إحداث تغيرات ناتجة عن الإيقاع اللفظي، وغرابة المعنى، وإخراج الكلام عن مقتضى الظاهر، واستخدام عناصر مشوقة في التعبير، وبذلك يؤكد أن للملمح نسبة ورود عالية في النص تجعله يتميز عن نظائره في المستوى والموقف الأدائي.

فالظاهرة أو المظهر هي ((أن يستفيض أسلوب معين في عمل أدبي حيث يتميز عن الأساليب المشابهة له في ذلك العمل، وساعد تتبعه على تحليل بنية النص وفهمها فهماً دقيقاً))⁽¹²⁾، ومن هنا يتأكد أن مصطلح (المظاهر) من المصطلحات الحديثة التي كشفت عن حظوة الدراسات النقدية والبلاغية؛ ولا سيما في السنوات القليلة الماضية بمعطيات جديدة حاول الدارسون ربطها بركب آثارهم والبحث عن ما جدّ في ميدانها من مفاهيم تبلورت حتى شملت بموضوعية علمية كلّ ميادين العلوم والمعارف.

وعت الدراسات الأسلوبية الحديثة مفهوم المظاهر من زوايا متعددة استناداً إلى أنماط التفكير والآراء المتنوعة؛ وصولاً إلى فهم جامع يمكن في ضوئه التأطير لدراسات موسّعة تستوعب أساليب التحول في الأداء الفني ضمن مستوياته المختلفة، فمرتکز الدراسات الأسلوبية بشكل خاص هو إبراز الدلالات الجمالية وتأثيرها على النص ((وذلك عن طريق النفاذ في مضمونه وتجزئة عناصره بالتحليل الذي يمهد الطريق للناقد ويمدّه بمعايير موضوعية يستطيع على أساسها ممارسة عمله النقدي وترشيد أحكامه، ومن ثمّ قيامها على أسس منضبطة))⁽¹³⁾.

ويبدو واضحاً أن الدراسات البلاغية القديمة لم تغفل هذا الجانب، وإن كان تناولها له مُقيداً بحدود المعرفة القديمة التي تهدف إلى تجاوز الطابع التجزيئي للأساليب البلاغية وما يكتنفها من تقسيمات من خلال الاستيعاب النظري والتطبيقي للمظاهر الأسلوبية، ورصد أهم الملامح التعبيرية وما تؤدّيه من أثر في صياغة التعبير، ليس في حدود التحرك البلاغي وحسب؛ بل فيما يتعدّاه إلى البحث في اللغة المعبرة عن دلالة اللفظة في نص الكاتب لاستكشاف عناصر الجمال فيها، وهذا يؤكد أن الدراسات الأسلوبية تختلف عن الدراسات اللغوية في أنها لا تعتمد على اللغة فقط؛ بل تتجاوزها إلى كيفية الاستخدام خدمة لأفكار المبدع وآرائه فتخرج عن حيز اللغة العادية إلى اللغة الرمزية؛ ومن هنا لا يمكن تجاهل الأسس الأولى التي وضعها البلاغيون القدماء في اعتماد مستويات التحليل فهي بؤرة أساسية في الدراسات، إذ تشكل حلقة وصل بين الأسلوبية الحديثة والبلاغة العربية القديمة.

إن لكلّ مظهر من المظاهر الأسلوبية تأثيره وأبعاده الخاصة المتميزة، يتجلى ذلك التأثير في توليد صور ذهنية ونفسية تحاكي إدراك المتلقي، وتعمل على إقامة علاقات بين الصيغ التعبيرية فهي ((تعالج النص الأدبي من خلال عناصره ومقوماته الفنية، وأدواته الإبداعية، متخذة من اللغة والبلاغة جسراً تصف به النص، وقد تقوم أحياناً بتقويمه من خلال منهجها القائم على الاختيار والتوزيع))⁽¹⁴⁾؛ لذا فإن دراسة المظاهر والأساليب صناعة فنية تعمل من أجل الكشف عن الإبداع بمستويين : الأول هو اللفظ، والثاني هو المعنى ((فالأسلوبية تتجه إلى الألفاظ باعتبارها ممثلة لجوهر المعنى))⁽¹⁵⁾، وهذا يتطلب الخوض في ميادين متنوعة تتحقق عندها مستويات من الابتكار، وتبعدها قدر المستطاع عن اللغة الإحصائية، بتحويل النص إلى جدولة تفرغ فيها المعلومات المطلوبة وإنتاج معادلات رياضية مرقمة تفقد النص جوهره، وبذلك تنتشط منطلقات البحث بإخراج ما اكتنزه من ملامح أسلوبية وفقاً للتشكيلات اللغوية التي تنطوي عليها.

ومن هذا المنطلق يمكننا التأكيد أن مصطلح (المظاهر) ذو قيمة معرفية تضعه في بودقة المفاهيم الأسلوبية الدالة على مستويات الأداء الفني استناداً إلى مؤثرات ذات صلة بالمبدع أو المتلقي، وهي ((مؤثرات تتحول وتبديل وتتحرف أحياناً عن مجراها في الاستعمال المألوف؛ لتكون في النهاية تنوعاً فردياً أو جماعياً))⁽¹⁶⁾، وهذا يعني استحضر الصور الذهنية وتهيئتها لدى المتكلم قبل البدء بعملية التوصيل القائم على أساليب إبداعية للمتلقي، مما يؤكد إخضاع جميع ألوان التعبير لقوانين عامة وثابتة تؤدي المعنى المقصود.

ب- المعايير الافتراضية للمظهر :

وُظِفَ مصطلحُ (المظهر) في الكثير من الأعمال الإبداعية بمستويات معروفة تستدعي حضوراً جمالياً للكلام وفنونه يتناسب مع حضور الظاهرة اللغوية متخذاً منهج التحليل الأسلوبي مساراً له؛ إذ إنه ((يسعى إلى الانضباط والضبط، الانضباط بترسمه مستويات التحليل اللساني الصارم، والضبط بأن يخضع موضوعه للأدوات الإجرائية التي توحد شتاته وتتسق عناصره))⁽¹⁷⁾، إن خلق صلات متجددة في الصياغة وعدم الاكتفاء بالصور الوظيفية الجاهزة يجعل الباحث يرصد الكثير من المظاهر الأسلوبية وفقاً لأساليب التعبير وتقريبها إلى اتجاهات متخصصة قائمة على أساس وصفي وعدم حصرها عند جدلية الشكل والمضمون، وبذلك يقتزن استعمال مصطلح (مظهر) في الدراسات الحديثة بكل ما يمكن أن يكون مثار إعجاب في الصياغة الفنية لتأكيد قيم الابتكار والجدة والوضوح، فأصبحت ذات طابع شمولي يُزيل الحواجز بين اللغة والأدب ويُتيح للناقد قراءة النص قراءة لغوية نقدية يتجاوز فيها عملية التحليل المستند إلى التعليل والتبرير؛ ليمثل مرحلة الكشف عن علاقات بناء الكلام الأدبي على التماثل وتحقيق الغرابة التي هي جوهره مميزاً عن الكلام الاعتيادي الذي يركز على خاصية التباين والاختلاف؛ حتى يمكنه أداء وظيفته التواصلية، من دون الاعتماد على قوانين مسبقة جاهزة، وهذا يعني أن كل تفاعل دلالي هو ناتج عن علاقات معاني الالفاظ من جهة، ومعاني النحو من جهة أخرى⁽¹⁸⁾.

ويبدو واضحاً أن مصطلح (مظهر) بديل لكثير من المفاهيم والمصطلحات القديمة التي أثّرت على الساحة النقدية والبلاغية العربية كالفنون، والأنواع والألوان والمحسنات، والأقسام، وبما أن التأثير الذي ينشده المبدع لا يتحقق إلا إذا توافر لمعانيه الوضوح والجلاء، واستطاع المتلقي أن يفهم ما اشتمل عليه العمل الأدبي من ملامح بارزة؛ لذا كان حرياً بالمبدع أن يختار لتعبيره ما يظهر فيه أثر الإبداع المؤثر في النفوس، ويشعر بأنها أمام جديد لا تستعمله في تعبيراتها المعهودة، وفي ذلك استحسان للمعنى العميق الذي يثير التأمل، ويحدث المتعة والفائدة في آنٍ واحدٍ عن أي ممارسة فنية أدبية؛ لذا فإن هذا المصطلح بما يحمله من ملامح أسلوبية، لا

يكتفي بتوخي الأشكال التعبيرية للفنون بل يتجاوزه إلى الكشف عن معطيات النصوص وتعميقها في ضوء المناهج النقدية الحديثة، وبما أن الأسلوبية تمدّ الأعمال الأدبية بالحدة والتفرد من خلال ما تمنحه من طرائق وأساليب متجددة، وأدوات قادرة على إستخراج كنوز الآثار بموضوعية قائمة على اللغة، فإن ذلك يقتضي ضرورة الاحتكام إلى معايير تظهر القدرة الإبداعية في النتاجات الأدبية. فالمظاهر الأسلوبية تكشف عن طاقات النص التعبيرية والتشكيلات اللغوية فيه، وتأسيساً على ذلك فإن النص كيانٌ خاصٌ مستقلٌ محكومٌ بعلاقات لها قوامها الفني واللغوي الذي يرسم ملامحه المميّزة عن غيره من النصوص، من دون إغفال المبدع والمتلقي في عملية التأثير مستنداً بذلك إلى المظاهر الأسلوبية؛ فهي جزء لا يتجزأ من هذا الكيان لارتباطها بصميم اللغة؛ بيد أن هذه اللغة ((لا تتحقق إلا بتفاعل الأنساق اللغوية المختلفة، منها ما يخص المرسل، ومنها ما يخص المتلقي من أهل اللغة، كما لم تغفل نسق المحتوى والمضمون، زيادةً على قناة الإرسال))⁽¹⁹⁾ وكل ما يتعلق بالتركيب وسماته الصورية من تآلف الكلم على وفق قواعد التركيب والنحو.

ومن الملاحظ أن المظهر البديعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعايير متعددة منها:

أولاً- المعايير الصوتية :

يشكل المقياس الصوتي عنصراً أسلوبياً مميزاً للولوج إلى النص وفهم قيمه الجمالية بوعي ودقة، فالمكون الصوتي هو الوحدة الأساسية للغة التي يتشكل منها النص الأدبي ويشمل هذا المكون الأصوات (الصوامت والصوائت) وفقاً لضوابط إجرائية تتحقق من خلالها فعالية التوازن الصوتي بوصفها إجراءات جائزة أو مؤهلات صوتية تستثمرها الأسلوبية، لتتوصل إلى ((كل ما يحدث إحساسات عضلية سمعية متمثلة في الأصوات المتميزة))⁽²⁰⁾، والدراسة الأسلوبية تعالج على وفق منهجية توزيعية تلك التكوينات الصوتية وصولاً إلى دلالة (المعنى الصوتي) من ((أصوات وإيقاعات خارجية وداخلية وتنغيم ونبر؛ لما تحدثه من أثرٍ على المتلقي للنص الأدبي، فإذا سيطر النغم على السامع وجدنا له انفعالاً حزيناً أو بهجةً وحماسةً حيناً آخر))⁽²¹⁾، ولا بدّ من التأكيد على أن المعايير الصوتية ليست حكراً على الشكل

الإبداعي في النص القرآني؛ بل تتعداه إلى ((الكشف عن العناصر التي تهيي ذهن المتلقي بما تظهره من تخييب لتوقعه وتوليد لحالة من التوتر بينه وبين النص))⁽²²⁾، وهذا يؤكد ارتباط الشكل بالمضمون الدلالي الذي يقصد له السياق بما يحدثه من عدول أو مغايرة أو مخالفة صوتية⁽²³⁾، وبما أن النص المُعتمد في هذه الدراسة هو النص القرآني، فإن البحث في إمكانية وجود مظاهر صوتية في التراكيب اللغوية أمر ليس باليسير؛ ((لأن موسيقى القرآن لا يمكن حصرها بحركاتٍ وسكناتٍ أو مقاطع طويلة أو قصيرة، ولا يمكن ضبطها بنبراتٍ أو أوتارٍ ونقراتٍ؛ لأنها موسيقى النفس والروح، وإيقاع الترسل والاتساق، وحالات التنعيم والترقيق والغنة، انها أصوات الحروف في تآلفها وتجاورها، لا أصوات النطق في تصريفه وتوقيعه، وما يستدعيه هذا اللحن وما يتطلبه من نغماتٍ راعشة))⁽²⁴⁾، وبذلك يولد الانسجام الصوتي (Harmony) في لغة القرآن الكريم علاقة ذات نظام خاص تكمن في آلية عمل اللغة العربية الإبداعية وتعاملها مع منظومة الأداء الصوتي، والموسيقى، والتركيبي، والدلالي وغير ذلك؛ لاسيما الإيقاع والتوازن في نهايات الفواصل وما يترتب عن ذلك من أثرٍ في إحداث الموسيقى الداخلية للمقاطع الصوتية المتضامنة مع السياق الواردة فيه، وقدرته على استيعاب الشحنات الدلالية بوصفها متغيراً أسلوبياً.

إنَّ المقياس الصوتي وما يرافقه من مظاهر التكرار والهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق والنبر، والتن غيم، له أثره البارز والمميز في التعبير القرآني؛ نظراً لما تحدثه أصوات الحروف من علاقاتٍ تناغمية تبعاً لمتطلبات المستوى التركيبي والدلالي في النص القرآني إذا ما عددنا أن الوحدات الصوتية فيه محكومة بوظيفة ومصاحبة صوتية تتحقق وتظهر في النسق الأدائي المنتظم لأصوات اللغة؛ فهي ((مجموعة من الأواصر داخل سياق السلاسل الكلامية التي يجري عليها النطق، تظهر في بنية السطح على هيئة ملامح تمييزية، لها نواتج قيمية توجه منظور السياقات التركيبية))⁽²⁵⁾، وبذلك تحقق إسهاماً فاعلاً في الكشف عن معطيات اللغة ودلالاتها الهادفة نحو التأثير، من خلال علاقاتٍ تلازمية بين مؤثرات الصوت، وإيقاعاته النغمية وبين المتلقي عبر سبل المغايرة،⁽²⁶⁾ وهي وسائل إبداعية ذات تشكيل جديد للمعنى على وفق رؤية أسلوبية واضحة.

ثانياً- المعايير التركيبية :

تتألف في لغة النص القرآني جزئيات من البناء التركيبي، على وفق نظام معجزٍ يشكل نمطاً له صياغته وإطاره الدلالي الخاص الذي يُسهم في إبراز الطاقة الإيحائية وما تتضمنه من أبعادٍ فنية وجمالية فالمقاييس التركيبية، هي المقاييس المتعلقة ببنية الجملة، إذ تغدو القرائن النحوية الوسائل الكاشفة للمعنى التركيبي حين تتبثق من تآزرها وائتلافها دلالات تركيبية ((مرشدة إلى دلالات سياقية إثر انخراطها؛ بل انصهارها في سلك السياق والموقف الذي ترد فيه))⁽²⁷⁾ وهذا يعني أن اللغة تقتضي مطلب لساني قائم على أساس التكامل بين النحو والدلالة، ((فدورة التكامل والتفاعل لوحداث التركيب ووظائفها وعلاقاتها السياقية هي الكفيلة بتحديد الدلالة النحوية))⁽²⁸⁾، وهذا يستوجب ضرورة الانتباه إلى (النص) بنية قد تخترق منظومتها التركيبية اللغوية مجموعة من المتغيرات والتحولات ((التي تطراً على النمط النواتي التوليدي من التحريك الأفقي، تقديماً وتأخيراً لوحداته أو إعادة ترتيبها ترتيباً جديداً))⁽²⁹⁾، وكل ذلك يقتضي علاقة الدالِّ بمدلوله؛ ولأن نظم القرآن في وصفٍ رصين ((لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائم، ورباطٌ لهما ناظم))⁽³⁰⁾، فاللغة بهذا المفهوم رصيذٌ من الاختيارات الشامل للألفاظ والمعاني والتركيب وما يعتورها من انزياحات تفرضها طبيعة الموقف ومقاصد الخطاب بالخروج والابتعاد عن الطابع المألوف للغة العادية وإحداث مفاجأة للمتلقي بإبعاده عن التقليد إلى ما هو مبتكر، خلال إجراءات يفرضها النسق الترتيبي لوحداث التركيب من حذفٍ وزيادةٍ وتوسعٍ وتفصيلٍ وقصرٍ وإيجازٍ وما إلى ذلك من أساليب تركيبية تُسهم في إبقاء المعنى عالِقاً في ذهنٍ مصحوباً بقرينة مؤكدة للدلالة المقصودة، وبذلك تُسهم المعايير التركيبية وما ينجم عنها من انزياحاتٍ موضعية أو بيانية في تحقق عناصر دلالية جديدة ذات إحياءاتٍ في تعميق الصور المعبرة التي تستجيب لها النفس الإنسانية فتقوم بفعل الوظيفة الدالة.

ثالثاً- المعايير الدلالية :

يمثل المعيار الدلالي نقطة الارتكاز وقطب الرّحى في الدراسات الأسلوبية الحديثة عامة والدراسات القرآنية بشكلٍ خاص؛ لأنه ((أخطر موضوعاتها وأشدّها تشابكاً مع الخلفية الكلامية والعقائدية للدارسين))⁽³¹⁾، وما ينتج عن ذلك من تنوع دلالي في الكشف عن أبعاد النص، وإجراءاته المرتبطة بالبنى العميقة والسطحية المتشكلة من الأصوات، والاشتقاقات الصرفية والعمليات النحوية إذ إن ((عملية الكلام لها جانبان: أحدهما مادي وهو الأصوات المنطوقة، والآخر عقلي وهو المعنى المقصود، وعلى هذا يجب أن يسير التحليل في خطين متوازيين))⁽³²⁾ :

الخط الأول: يمثله المستوى الصوتي، في حين يمثّل المستوى الدلالي الخط الموازي الثاني، حيث تظهر العلاقة واضحة بينهما من خلال التطابق والتكامل بما تستدعيه بعض الدلالات من أصواتٍ معينة قد تعبّر عن نوع معينٍ من الدلالات تخرج تصوراً واضحاً عن البنية الكلية للنص بإدراكها من خلال السياق والموقف الكلامي.

تسعى المعايير الدلالية في مظاهر التعبير القرآني إلى ((الكشف عن البنى المولدة للمعنى : الوجه المتقدم للغة، الكاتب ورؤاه))⁽³³⁾ وبيان جمالية النظم والتركيب، وحسن توظيف الأنساق اللغوية الكبرى من خلال التركيز على أهمية السياق في تحديد المعنى، فاللفظة في حدّ ذاتها لا قيمة لها؛ إلاّ إذا أكتسبت موقعها في النص وعلاقتها ببقية عناصر الجملة، وهذا يؤكد إشارة عبد القاهر الجرجاني، لهذا المعنى فيقول : ((وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟))⁽³⁴⁾.

يتبين من ذلك أن للسياق مفهوماً شمولياً يتضمن اللفظة والألفاظ المجاورة، والجملة، والجمل المجاورة لها، ويمتد ليتداخل مع ((معايير اجتماعية معينة تطابق في الاستعمال، وتُقاس في الكلام، ومن ثمّ تصطبغ بصبغة ظاهرة الصوغ القياسي creation Analogic))⁽³⁵⁾، وباجتماع تلك المعاني نتلمس الدلالات الإيحائية والضلال المشعة من الكلمة القرآنية التي تتوافق بدقة مع متطلبات الموقف ومجريات

السياق ((الذي يوضح ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنها قصد بها - أساساً - التعبير عن العواطف والانفعالات))⁽³⁶⁾ بطريق الحقيقة أو المجاز أو الترادف أو الاشتراك اللفظي مما يُكسب الألفاظ درجة عالية من الحجة والبرهان للدلالة على المعاني وإبرازها، وذلك يعود إلى طبيعة اللغة المتطورة ودخول اللفظ في الاستعمال المجازي مع ضرورة المحافظة على العلاقات الترابطية والتبادلية لتلك المعاني في بناء النص، والدقة في مطابقة اللفظ للمعنى من خلال حسن الاختيار الذي يتمثل في النص القرآني، وهنا يتأكد أن أسلوبية الدلالة المتمحورة حول خصوصية النص القرآني تحفل بالوضوح والدقة والحقيقة في مسارها العام مما عمق مجرى الفائدة، ورسخ رعاية المعنى الموصول بمتلقيه إقناعاً وتأثيراً وترهيباً وترغيباً⁽³⁷⁾.

وباستيعاب تلك المعايير الأسلوبية وتطبيقها على مظاهر الدراسات القرآنية يتوصل الباحث إلى قراءة منهجية مُعاصرة مرتكزة إلى مستويات الصوت، والإيقاع، والدلالة، والتركيب، تنطلق من مفاهيم منسجمة ومتكافئة تحافظ على الموروث وتحقق أصالة إجراءاته انطلاقاً من أسلوبية القرآن الكريم، وهي ((أسلوبية نصية تتألف فيها العناصر؛ لخدمة النص وتتابع المقاييس في وصف المكونات المترتبة خدمة لإعجاز نصٍ يُعجزُ بكُلِّه أكثر من إعجازه بجزيئاته))⁽³⁸⁾.

وجملة تلك المعايير تصف ما برز في التعبير القرآني من مظاهر لفظية ومعنوية وتحيط بأهم أبعاد الخطاب القرآني بوصفه رسالة ودعوة وحجة ودليلاً.

ثانياً : المظهر البديعي بين الأصالة والتبعية :

أ- دلالة المصطلح في الموروث البلاغي العربي. في خضم تَقَلُّبات كلمة (البديع) في اللغة نجد أن لمادة (بَدَعَ) معانٍ يمتدُّ مقاربتة تستمدُّ مفاهيمها من الاختراع والجدّة والحداثة والابتكار على غير مثالٍ سابقٍ⁽³⁹⁾، في أمورٍ ماديةٍ ومعنوية ذات صلة واضحة وانسجام تام مع المعنى الاصطلاحي الذي تباينت دلالاته ضيقاً واتساعاً، تعميماً وتخصيصاً، حين حُدِّد لعلم البديع مفهومٌ يُميّزه عن علم المعاني وعلم البيان، وهذا المفهوم هو ((العلم الذي يعرفُ به وجوهُ تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مُقتضى الحال ووضوح الدلالة))⁽⁴⁰⁾، وبهذا التحديد والتقنين أصبحَ البديع علماً ثالثاً يُتقاسمُ موقعه الثلاثي بين علوم البلاغة العربية.

لكنَّ المسألة اللافتة تتمركز حول أولوية وضع اللبّات الأساسية الأولى لمصطلح (البديع) بمعناه الفني، التي شكلت نقطة خلافٍ عند الكثير من علماء البلاغة الأوائل الذين اشتغلوا بذكر التعاريف والأقسام البلاغية المتعددة مما شغلهم عن الوقوف أمام المظهر البديعي وبيان مكنوناته الجمالية، وبالتالي توسع ذلك إلى إحاطة البديع بجفوة عزلته عن التأثير في النفوس فأصبح مجرد حليةٍ تحسينيةٍ يُزين بها الكلام بعد أن تحقق فيه مراعاة المطابقة ووضوح الدلالة. وعلى الرغم من التلازم الذي قام في الأذهان بين مصطلح (البديع) وبين ابن المعتز (ت 296هـ) على مستوى التنظير؛ بوصفه صاحب الريادة في التأليف فيه، فإنَّ الحقيقة تؤكد أن مرحلة التحديد والتخصيص تبدأ بإشارة الجاحظ⁽⁴¹⁾ (ت 255هـ) في غير موضعٍ من كتابه (البيان والتبيين) إلى أن الرواة أول من أطلقوا وصف البديع على ما يميّز من الشعر بجماله وصياغته، وتمثل بقول الأشهب بن رُميلة⁽⁴²⁾.

هُم سَاعِدُ الدَّهْرِ الَّذِي يُنْقَى بِهِ وَمَا خَيْرُ كَفٍّ لَا تَنْوُءُ بِسَاعِدِ

وقد علّق الجاحظ على البيت قائلاً : ((هم ساعدُ الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع))⁽⁴³⁾.

ومن أهم فنون البديع التي تناولها الجاحظ وكانت شائعة في عهده :

حُسْن التقسيم وجودته، وأسلوبُ الحكيم، وحُسْن الابتداء، وحسن التخلص، وحُسْن الانتهاء، والمذهب الكلامي، والكنائية، وهذه المظاهر البديعية تعكسُ الجودة في طرائق التعبير الفني؛ لأن البديع مفهوم عام لا يختص بظاهرة بلاغية دون أخرى (44).

أما ابن المعتز فقد جاء كتابه (البديع) محاولةً منهجية دقيقة لحصر المظاهر البلاغية التي يوصف الكلام من أجلها بأنه بديع، ويبلغ مستوى خاصاً من حيث الصياغة الفنية المنظمة في هذا الميدان، فكان تأليف الكتاب تأصيلاً لظاهرة البديع أولاً، وسبباً لما شاع في عصره من عناية بالقيم الصوتية : جرساً وإيقاعاً ثانياً، ويشكل عنوان البديع ((تسمية عالية ذات دلالة على مضمون الكتاب وغايته)) (45)، وهنا تبدو مرحلة الاتساع والعموم.

ويلحظ الباحث في تقسيم ابن المعتز لفنون البديع الاختلاط والتمازج، والتوسع في عرض أصناف البديع بذكره الاستعارة، والكنائية، وحسن التشبيه (46)، على أنها مما يتوصل به الأديب إلى التجديد والتصوير المبتكر، فالبديع عنده واسعٌ يشمل البلاغة كلها، وقد ترك ابن المعتز الباب مفتوحاً للاجتهاد والتطوير والابتكار أمام البلاغيين والنقاد، وقد تأثر أغلبهم بمنهجه العام الشمولي، وهنا بدأ التنافس في هذا الميدان لرصد أكبر عدد من المظاهر البلاغية، رغبةً في التوصل إلى ألوانٍ بديعية جديدة، حتى اتسع مجال هذا الفن اتساعاً لا حدَّ له، مما أثقلَ كاهله، وألحق به من الأضرار أشدها (47)، ومما سبقَ يمكننا التأكيد أن رصدَ جذور مظاهر البديع في القرآن الكريم والحديث واللغة والشعر العربي القديم المتمثل بكتاب (البديع)، هو تأصيل لتلك المظاهر وإقرارٌ بجهدٍ مفتوحٍ يتربص تطوراً وتجديداً نحو الأفضل.

ومن معاصري ابن المعتز مَنْ وَسَّعَ مدلول مصطلح (البدیع) مثل قدامة بن جعفر (ت 337هـ)، إذ اهتدى إلى ألوانٍ جديدة من البدیع تصل إلى أربعة عشر نوعاً هي : الترصیع، الغلو، صحة التقسيم، صحة المقابلات، صحة التفسير، التتميم، المبالغة، الإشارة، الإرداف، التمثيل، التكافؤ، التوشیح الإیغال، الالتفات، في حين يردد القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ) ما صرح به من سبقه في دلالة البدیع على (الجديد في بلاغة الشعر) مُشيراً إلى بعض الألوان البلاغية المندرجة تحت هذا العلم.

ويُلَمَح مدى الاتساع في مفهوم البدیع بإضافة أبي هلال العسكري (ت 395هـ) تُزاد على ما أورده السابقون حتى بدا مصطلح البدیع مرادفاً للبلاغة بمفهومها العام⁽⁴⁸⁾، وينعكس هذا الاتساع في المفهوم البديعي وتشعب مظاهره عند الباقلاني (ت 403هـ) بعقده فصلاً (في ذكر البدیع من الكلام) أدرج تحته ما يربو على خمسة وعشرين نوعاً بلاغياً مع التمثيل؛ لكن توسعه في النظر إلى البدیع لا يوصله إلى معرفة (إعجاز القرآن)؛ لأن ((ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف؛ بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له))⁽⁴⁹⁾، وهنا لا بد من التنبيه على أن الدرس الأسلوبی الحديث كشف عن وجهة نظر الباقلاني حول مفهوم (البدیع) بتفصيل دقيق، ومن أبرز الدراسات التي يُعتد بها في هذا الميدان دراسة الأستاذ الدكتور فاضل عبود التميمي، فقد أثبت جملة من المسائل أهمها⁽⁵⁰⁾ :

- ١ - إن مصطلح البدیع عند الباقلاني يضم فنون البلاغة كلّها، وليس العلم الثالث من علومها.

٢ - لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من فنون البدیع التي ذكرها علماء العربية.

٣ - البدیع الذي يمكن بوساطته معرفة إعجاز القرآن ليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه.

٤ - البدیع وجه بلاغي يقع في المرتبة الثانية من مراتب الأساليب البلاغية، وأنه ظاهرة شكلية لا علاقة لها بجوهر الخطاب يمكن تجاوزها، والتحكم في أبعادها.

٥ - البديع عند الباقلاني واحد؛ ولكنّه من منطق العارف بلغة القرآن الكريم وتركيبها فرّق ما بين البديع في اللغة الاعتيادية، وبين البديع القرآني، بمعنى أن (البديع) يتمظهر بمستويات، منها: ما هو في سياق خاص، ومنها: ما هو في سياق إنساني محض⁽⁵¹⁾.

٦ - كشفت الدراسة عن مدى أهمية (البديع) في إيضاح أسرار الإعجاز؛ لكن ذلك لا يكون إلّا في دائرة النظم القرآني المجمل.

٧ - أكدت الدراسة أن الشواهد التطبيقية التي أوردها الباقلاني للبديع القرآني، وسعت دائرة الحرية المطلقة للقارئ من أجل الإمساك بالإعجاز، مُشيرةً إلى أن مصطلحات البديع المتعلقة بالإعجاز القرآني عامة⁽⁵²⁾.

وبالعودة إلى تراثنا القديم فقد اهتم ابن رشيق (ت 463) بالتفريع والتناسل والنحو في مظاهر البديع حتى أوصلها إلى تسعة وعشرين نوعاً حُظيت بنصيبٍ وافرٍ من البحث والدراسة، والتفريق بين البديع كفنٍ بلاغي وبين المخترع من الشعر⁽⁵³⁾. ولا يخفى على الدارس المتضلع في علم البلاغة أثر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الذي سعى إلى ترسيخ معايير تطبيقية لتمييز فنون البديع عن غيرها من ملونات التحسين اللفظي والصناعة الشكلية، مقررّاً بذلك أهمية هذه الفنون، ومحددّاً سُبُل تحقيقها وتجنب الإفراط في اعتمادها، ثم يعود المصطلح ليتسع من جديد في كتاب (قانون البلاغة) لأبي طاهر البغدادي (ت 517هـ)، وكتاب (البديع في نقد الشعر) لأسامة بن منقذ (ت 584هـ) اللذين أبرزتا التداخل والجمع والخلط بشكلٍ ملحوظٍ لمحاسن البديع ومساوئها، وبهذا القول نؤكد أن مؤشرات البديع تكمن في ما يؤديه من دورٍ يُلائم فيه المعنى وينسجم مع اللفظ بلا إكراه، على الرغم من محاولات الاتساع والتجديد لمظاهره وفنونه.

ومن غير الممكن إنكار أثر السكاكي (ت 626هـ) الاستثنائي، الذي يبرز على الساحة البلاغية، متصدياً لهذا الفن بمنهجية تكاملية تاركةً أثرها العميق في تقسيم علوم البلاغة وبيانها، تقسيماً أجحف فيه علم البديع للاحاقه بعلمي المعاني والبيان، وتقسيمه الجامد إلى قسمين : قسم يرجع إلى اللفظ، وقسمٌ يرجع إلى المعنى، وهو أول تقسيم يُصبح فيه البديع على يد السكاكي تابعاً مكملًا، وأن ما جاء بعده من

دراسات وتلخيصات، يمكن عدّها مظهرًا لما وصلت إليه البلاغة العربية من الجمود والولوع بالتقسيمات والتفريعات فقد أزيح البديع عن موقع السيادة والهيمنة ونُقل إلى الهامش بعد أن كان يتمتع بها أربعة قرون مع ابن المعتز الذي وسع دائرة نفوذه البديعي ليشمل كل صور التعبير ووجوهه اللسانية.

وهنا تتأكد حقيقة تأطير مفهوم البديع بتميز عن البلاغة بمفهومها العام في رؤية السكاكي البحثية، واستقلاله بالبديع في قسم ثالث يُصار إليه؛ لقصد غايةٍ تحسينية ترتبط بنقد بعض المفاهيم المؤسسة لعلم البلاغة ((لأنها لا تتفصل بحالٍ من الأحوال عن البعد الجمالي))⁽⁵⁴⁾.

إنّ الوقوف على الغاية التحسينية في فن البديع وبيان أصالتها وابتعادها عن الشكلية يتطلب النظر ملياً في تباين الآراء والمناقشات التي أثّرت على الساحة النقدية والبلاغية حول ذاتية مظاهر البديع وعرضيتها، ففي الوقت الذي رعى فيه القزويني (ت 739هـ) علم البديع رعايةً مزدوجة تبدو في شقها الأول دالة على علم المعاني، وفي شقها الثاني دالة على علم البيان حين حدّه بقوله : ((العلم الذي يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة))⁽⁵⁵⁾، وقسم المحسنات البديعية قسمين : معنوية جعلها قرابة ثلاثين نوعاً، ولفظية : جعلها سبعة أنواع، ثم ألحق بها السرقات الشعرية وما يتصل بها من تضمين واقتباس⁽⁵⁶⁾، وبهذا يستقر مفهوم مصطلح (البديع) عند حدود تحسين الكلام على الرغم من المحاولات الجادة التي نهض بها البلاغيون القدماء للربط بين المستوى الشكلي المحسوس والمستوى الباطني غير المحسوس في ميدان التطبيق البديعي⁽⁵⁷⁾، باعتماد بعضهم على المعنى من دون اللفظ، واعتماد بعضهم الآخر اللفظ من دون المعنى، كمحاولة السكاكي التحويلية ذات البعد الأسلوبي الواضح لربط المستوى اللفظي بالمعنوي في قوله : ((وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني : أن لا تكون متكلفة))⁽⁵⁸⁾.

والسكاكي في تعامله مع مظاهر البديع وملاحظاته المسجلة عنها يُشير إلى نظريته المتقاربة مع من سبقه في دراسة الظواهر الفردية بمعزل عن الدلالة، وهكذا ف((إنّ النظر في المبحث البديعي - في مجمله - يؤكد أن رجال البلاغة قد أهمهم

تحسس بناء الجملة بوصفه الوحدة الصغرى للخطاب اللغوي، واعتمدوا في ذلك على توصيف عناصر الجملة توصيفاً يبدأ من الحرف المعزول عن الدلالة، وصولاً إلى التركيب بكل مكوناته الإفرادية، بكل علاقاته النحوية⁽⁵⁹⁾.

ب- البديع من منظور الدراسات الأسلوبية، نظرة تجديدية :

في ظل ما سبق من جهودٍ بلاغيين العرب القدماء يتأكد أن البلاغة العربية بعلمها الثلاثة، دُعمت بعلوم اللغة منذ نعومة أظفارها، فأنت أكلها في الكشف عن القيم الجمالية داخل النص وتوظيف موضوعات البلاغة؛ لتفسير النصوص وتتبع لغتها الفنية، فأُسست بذلك لدراساتٍ أسلوبية تتناول أوضاع اللغة داخل النص على وفق معايير ثابتة، ((تسعى إلى قراءة مصطلح البديع على وفق ما يمتلك اليوم من تحولات أسلوبية اتجهت به من الرؤية البلاغية (التحسينية) إلى مستوى جديد بدا فيه متساوفاً مع ما قدمت (الأسلوبية) من رؤى، ومعالجات في مستويات ثلاثة : صوتية، وتركيبية، ودلالية))⁽⁶⁰⁾، وبما أن للبديع علاقة بمكونات التعبير بوصفه ((أداة تعبيرية يعتمد المفارقة الحسية والمعنوية لغة بذاتها، كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصية بذاتها، كل ذلك يمثل عملية تنظيم لأدوات التعبير التي كان الإلاح عليها وسيلة لقبولها أولاً، ثم الإعجاب بها ثانياً))⁽⁶¹⁾ فإن التحولات في اللغة وانحرافها، تشكل منعرجاً حاسماً في سياق البديع، وعلى الرغم من المزاعم الموجهة إليه بتناول قضايا الشكل من دون المضمون، فإنّ الأشكال البديعية هي أكثر الظواهر اللغوية التي يمكن أن تقدم للمبدع هذا الثراء والتنوع، على أن يؤخذ بالحسبان دائماً الابتعاد عن التكلف والاعتساف، ((على معنى أن تكون الأشكال البديعية دعماً للقدرة الإبداعية، التي يتم التعامل معها لتكون مكوناً أساسياً في البناء الشكلي والمضموني، وهو ما يجعل من الأسلوب ظاهرة خارجية وداخلية على صعيد واحد، إذ يصعب الفصل بين ما هو أساسي في البنية، وما هو إضافي تحسيني، وهو ما يدفع بالأسلوب إلى منطقة الأدبية الحقيقية))⁽⁶²⁾.

ومن تتبع مظاهر البديع وحركتها في نصٍ ما كالطباق والمقابلة والتورية واللف والنشر، ومراعاة النظر، إلى غير ذلك من فنون البديع، نلمس العلاقات العميقة التي تجمع بينها وهي علاقات حتمية تفرضها طبيعة اللغة التي يستخدمها

منشئ النص وما يرافقها من تحولاتٍ في المعنى والدلالة، فعلى سبيل المثال يأتي الطباق نوعاً من التقابل في المعنى، من خلال توظيف مفردات متقابلة في الدلالة ((ومن الممكن توظيف هذه الظواهر في إنتاج نوعٍ من الإيقاعية التكرارية، سواءً أكان ذلك في منطقة السطح الصياغي، أم في منطقة العمق الدلالي، وهذا هو أساس التكرارية التي تكاد تسيطر على مجموع البنى البديعية))⁽⁶³⁾، وهذا ما لاحظته البلاغيون من إمكانية إنتاج بنية (التطابق) أو (التقابل)، ومعنى ذلك أن التركيز في معالجات مظاهر البديع من الزاوية الأسلوبية يرصد قضية لغوية تحدد علاقات توزيعية مترابطة بالمعنى مع الدلالة داخل النص والتي يمكن تشخيصها باعتماد منهجية وإجراءات (نحو النص)⁽⁶⁴⁾.

وقد حدّد الدكتور جميل عبد المجيد الصفة القارة في النص المعتمد ((وهي صفة الاطراد أو الاستمرارية (Continuity)، وهي صفة تعني التواصل والتتابع والترابط بين الأجزاء المكونة للنص))⁽⁶⁵⁾، ومن خلال هذا التحديد لأبّد من إعادة النظر في ما ارتبط بالبديع من وظيفة جمالية يتحدد بها جوهر الأسلوب وتقويمه على أنه ركنٌ أساسيٌّ من مقومات النص غير منحصر بغاية تحسينية تزيينية تلحق بالكلام بعد استيفائه لشروط البلاغة. بمعنى أن الدراسات الأسلوبية الحديثة تثنى قيمة المظاهر البديعية وفقاً لأدائها في ((إنتاج الخطاب وبنائه جمالياً ودلالياً، وتتفني - في إطار هذه النظرة - التفرقة المفترضة بين محسناتٍ لفظية ومحسناتٍ معنوية))⁽⁶⁶⁾، وهنا تحتم الدراسة الأسلوبية فرضَ نظرتها إلى التحسين المنوط بالبديع على أنه قيمة جمالية جوهرية ذات أثر محكوم بعدد من العلاقات والمعايير المنهجية التي بإمكانها استيعاب النص بشموليةِ الدرس البلاغي القديم، والدراسات اللغوية الحديثة.

إنّ أساليب البديع المُعتمَدة في التحليل الأسلوبي ترتكزُ أصلاً على عفوية التعبير، وفقاً لمستويات القياس الأسلوبي اللفظية والدلالية وطرائق تقديم المعنى فمثلاً استخدام أسلوب (الجناس) أو (السجع) أو (المقابلة) في نصٍ ما يعكس علاقات التكرار وإجراءاتها المرتبطة بغاية الإقناع محاولةً لتقريب المعنى المقصود، وهذا ينطبق أيضاً على أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم ((ويلاحظ في هذا الشكل وجود

علاقة جامعة بين الصفتين، كما أن حضور المتلقي إلى رحاب الصياغة أمر ضروري لإنتاج البنية لبلاغيتها، لأنه بمتابعته للصياغة يتوهم بداية أن الصفة الثانية صفة ذم، فإذا بها تفاجئه بانتمائها إلى الجملة الأولى (المادحة) ⁽⁶⁷⁾، وتتعكس أيضاً علاقات التحول والعدول والمغايرة في أسلوب بديعي كالتجريد وحسن التعليل حين تعتمد بنية الانتقال التي تستمد أثرها الأسلوبي من ((المخالفة السطحية بين المنتقل عنه والمنتقل إليه؛ ولكن البلاغيين يعيدون الانتظام لهذه المخالفة بالنظر في المستوى العميق وإيجاد نوع من التوافق والانسجام بين الطرفين)) ⁽⁶⁸⁾.

وكل تلك الأساليب البديعية تشكل ظواهر أسلوبية جديدة داخل النص بما تفرضه من تغيرات وتحولات في المعنى والدلالة إلى جانب تحولات اللغة التي يبرز أثرها الأسلوبي جرّاء قيمتها العدولية المتولدة عن الطبع والعفوية، وتوظيف مستوياتها الجمالية بالقفز على وعي المتلقين وإثارتهم، ومن هنا يفهم أن (البديع) بمظاهره المتنوعة رغم شدة إقتضاء الحال واستدعاء المقام لجملة فنونه؛ إلا أنه يرجع عند كثير من البلاغيين على الكلام بالتحسين العرضي، وهذا ما يرفضه البحث بشدة؛ لأن الواقع أنه ليس مظهر ترف في الأسلوب متى كان جارياً مع الطبع وإنما هو مظهر من مظاهر التناسق الصوتي، والتناسب الدلالي في العمل الأدبي يعكس التألق في رؤية المعنى وحسن تأديته.

وهنا يتأكد أن المظاهر البديعية إنما هي تقانات فنية ترتقي بالتعبير إلى تصيّد المعاني والدلالات لتقديمها في قوالب لفظية تستثير إعجاب المتلقي؛ لما تحمله من إبداع فني يتمثل في الأسلوب الأعرق الذي يتصل بالفصاحة المعنوية زيادةً على سعيه لضبط جهات الحسن في الكلام، وبذلك يشارك أخويه في تحقيق الحسن البلاغي بعد تحقيقه رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة مع احتفاظه باستقلاله الوظيفي في نوعية المعالجة، وخصوصية التناول التي تقتضي تمايزاً بين علوم البلاغة الثلاثة.

النتائج:

أكد البحث أن الأسس الأولى التي وضعها البلاغيون القدماء اعتماداً على مستويات التحليل، تشكل نقطة انطلاق أساسية لكثير من الدراسات الحديثة، وحلقة وصل بين الأسلوبية بمفهومها المعاصر والبلاغة العربية القديمة، وبسبب من ذلك كانت الإجراءات المنهجية تبحث في التأصيل للكشف عن النتائج والملاحظات العلمية التي ينبغي الكشف عنها، ويمكن إجمالها في الآتي :

- 1- أجمعت معاجم اللغة العربية على ارتباط مادة (ظهر) بمعناها اللغوي مع المدلول الاصطلاحي.
- 2- إن لكل مظهر من المظاهر الأسلوبية تأثيراً سياقياً، وأبعاداً خاصة تتجلى في توليد صور ذهنية ونفسية تحاكي إدراك المتلقي وتعمل على إقامة علاقات وثيقة بين الصيغ التعبيرية على مستوى المقطوعات والمشاهد والنصوص.
- 3- إن مصطلح (المظهر) ذو قيمة فنية داخلية في بودقة المفاهيم الأسلوبية الدالة على مستويات الأداء الفني؛ استناداً إلى مؤشرات ذات صلة بالمبدع والمتلقي في آن واحد.
- 4- يسعى مصطلح (المظهر) إلى تحديد الإطار اللساني الذي تحدده إجراءات الرصد.
- 5- أظهر البحث أن مصطلح (المظهر) يمثل بديلاً لكثير من المفاهيم القديمة التي أثّرت على الساحة النقدية والبلاغية؛ فهو بمنزلة الملمح الأسلوبي المكثف والمعد سلفاً للرصد المنهجي.
- 6- يرتبط مفهوم (المظهر البديعي) ارتباطاً وثيقاً بمعايير متعددة تفرض سلطتها العلمية؛ لرصد مديات التشابه والاختلاف، والوقوف على عناصر الولوج إلى النص وفهم قيمه الجمالية بوعي ودقة، تؤكد إسهامها الفاعل في الكشف عن معطيات اللغة ودلالاتها الهادفة نحو التأثير.
- 8- حددت الدراسات الأسلوبية مفهوم (المظهر) استناداً إلى أنماط التفكير والآراء المتنوعة، وصولاً إلى فهم جامع يمهّد الطريق للناقد ويمده بمعايير موضوعية وفنية قائمة على أسس منضبطة.

- 9- يرتبط مفهوم (المظهر البديعي) بخصوصية اللغة العربية الإبداعية؛ لما يظهره من أنماط أدائية خاصة، ولأسيما في التعبير القرآني.
- 10- يؤكد البحث احتفاظ (المظهر البديعي) باستقلاله الوظيفي من خلال نوعية المعالجة، وخصوصية التداول التي تقتضي تمايزاً بين علوم البلاغة الثلاثة، وبذلك يشارك (علم البديع) أخويه (المعاني والبيان) في تحقيق غاية الأسلوبية التي تقتض أن لكل نص أحكامه الجمالية النابعة من داخله.

Abstract

The study is serious attempt to renewal the heritage of articulation and meaningful improving, and join it with novelty in the frames of stylistic and analytical practices through its effort to verify the concept of the aspect of articulation and meaningful improving and fixing its roots in language and terminology.

First, put phonetic, structure, and inferential hypothetical standards that are accompanied with stylistic analysis procedures which is considered as noticeable charge attracts the contextual relations which are studied through tongues science.

هوامش البحث :

(أ) كتاب العين : مادة (ظَهَرَ).

(2) ينظر: جمهرة اللغة : مادة (ظَهَرَ)، مقاييس اللغة : مادة (ظَهَرَ).

(3) ينظر: مجمل اللغة : مادة (ظَهَرَ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: 387/2.

(4) أساس البلاغة : مادة (ظَهَرَ).

(5) ينظر: الصحاح : مادة (ظَهَرَ)، القاموس المحيط : مادة (ظَهَرَ).

(6) لسان العرب : مادة (ظَهَرَ).

(7) المعجم الوسيط : مادة (ظَهَرَ).

(8) ينظر: المعجم القرآني : مادة (ظَهَرَ).

(9) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته : 149-150.

(0 أ) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته : 150.

* ولد عام 1967، درس الاستشراق والفلسفة والمسرح في جامعة كولونيا، القاهرة وبون، نشر العديد من الأبحاث المعمقة، وكتب في كبريات الصحف الألمانية والمجلات المختصة، نشر العديد من الدراسات والقصص، ينظر: بلاغة النور، جماليات النص القرآني : 5، وهذا الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه تقدم بها الباحث إلى جامعة بون بألمانيا عام 1997م.

(1 أ) بلاغة النور، جماليات النص القرآني : 132.

(2 أ) ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين : 41.

(3 أ) الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية : 35.

(4 أ) البلاغة والأسلوبية (يوسف أبو العدوس) : 184.

(5 أ) البلاغة والأسلوبية (د. محمد عبد المطلب) : 207.

(6 أ) المصدر نفسه : 289.

(7 أ) المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية : 5.

(8 أ) ينظر: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء : 153.

(9 أ) علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي : 128.

- (20) قراءات بلاغية : 80.
- (21) موسيقى الشعر : 14.
- (22) الفاصلة وبنية الانسجام الشكلي في سورة الإنسان (بحث)، أ.م.د. إياد عبد الودود الحمداني، م.د. خيرى جبير الجميلي، مجلة ديالى للبحوث العلمية والتربوية (مجلة علمية محكمة)، تصدرها كلية التربية - جامعة ديالى، س 2006م، ع23، ص .
- (23) ينظر: الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي : 23.
- (24) ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن (بحث)، نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، دمشق، س1984م، ع 17، ص96.
- (25) علم اللسانيات الحديثة : 340.
- (26) يُنظر: التصوير بالفاصلة القرآنية (بحث)، أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني، مجلة المهرة، (مجلة علمية محكمة) تصدرها كلية التربية، جامعة حضرموت، س 1425هـ - 2005م، ع3، ص62.
- (27) تجليات الدلالة الإيحائية : 251.
- (28) المكان نفسه.
- (29) المصدر نفسه : 269.
- (30) بيان إعجاز القرآن : 27.
- (31) المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية : 157.
- (32) دور الكلمة في اللغة : 33.
- (33) قراءات بلاغية : 93.
- (34) دلائل الإعجاز : 44.
- (35) اللغة بين المعيارية والوصفية : 39.
- (36) دور الكلمة في اللغة : 70.
- (37) ينظر: المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية : 206.
- (38) المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية : 284.

- (39) ينظر: مادة (بَدَعَ) في : كتاب العين، وتهذيب اللغة، ومعجم مقاييس اللغة، ومجمل اللغة، ولسان العرب، وتاج العروس.
- (40) الإيضاح : 255.
- (41) ينظر: البيان والتبيين : 55/4.
- (42) ينظر: البيان والتبيين : 66/3 و 211، والأشهب شاعر إسلامي مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم ولم تعرف له صُحبة ولا اجتماع بالرسول ﷺ؛ لذا أورده ابن حجر في قسم المخضرمين من الإصابة، ورُميلة أسم أمه، فهو ممن نُسب إلى أمه من الشعراء، وكان الأشهب ممن هاجى الفرزدق، ينظر: كتاب الحيوان : 315/1، الإصابة في تمييز الصحابة : مج 1/ج1/110، وينظر: ترجمة الأشهب في خزنة البغدادي : 30/6.
- (43) البيان والتبيين : 55/4.
- (44) ينظر: البديع وفنونه : 15.
- (45) البديع، دراسة في البنية والدلالة : 17.
- (46) ينظر: البديع (ابن المعتز) : 3 و 64 و 68.
- (47) ينظر: البديع، دراسة في البنية والدلالة : 20.
- (48) ينظر: كتاب الصناعيين : 239.
- (49) إعجاز القرآن (الباقلاني) : 111.
- (50) إعجاز القرآن للباقلاني (د. فاضل عبود التميمي) : 81-83.
- (51) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني (د. فاضل عبود التميمي) : 76.
- (52) ينظر: المصدر نفسه : 73.
- (53) ينظر: العمدة : 256/1.
- (54) محاضرات في علم البيان : 235.
- (55) الإيضاح : 255.
- (56) ينظر: الإيضاح : 301.
- (57) ينظر: البديع، دراسة في البنية والدلالة : 22.
- (58) مفتاح العلوم : 542.

- (59) البلاغة العربية، قراءة أخرى : 348.
- (60) قراءات بلاغية : 64.
- (61) البلاغة العربية، قراءة أخرى : 384.
- (62) البلاغة العربية، قراءة أخرى : 17.
- (63) المصدر نفسه : 354.
- (64) وهو مصطلحٌ بلاغي نقدي يعالج علاقات فيما وراء الجملة : بين الجمل والفقرات والنص بتمامه، وذلك على المستوى المعجمي، والمستوى النحوي (الصرف، والصوت، والتركيب)، والمستوى الدلالي، ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : 68.
- (65) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : 76.
- (66) البديع وفنونه : 65.
- (67) البلاغة العربية، قراءة أخرى : 404.
- (68) المصدر نفسه : 392.

المصادر والمراجع—ع :

أولاً/ الكتب :

- أساس البلاغة، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1419هـ-1998م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي الكناي العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر (772هـ-852هـ)، طبعة (موافقة للنسخة المطبوعة سنة 1853، كلكتا)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (9) أجزاء.
- الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم، د. عبد الله علي الهتاري، دار الكتاب الثقافي، عمان - الأردن، 1429هـ-2008م.
- إعجاز القرآن، تأليف: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت 403هـ)، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.
- إعجاز القرآن للباقلاني - منهجه ومسائله - وإشكالية بديعه، د. فاضل عبود التميمي، المطبعة المركزية، جامعة ديالى، ط1، 2011م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، تأليف: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني (ت 739هـ)، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2003م - 1424هـ.
- البديع - دراسة في البنية والدلالة، د. عزّة محمد جدوع، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1429هـ - 2008م.
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.
- البديع وفنونه - مقارنة نسقية بنيوية، د. شكري الطوانسي، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة ، ط1، 2008م.

- البديع، تأليف: أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت 296هـ)، نشره اغناطيوس كراتشوفسكي، لندن، 1935م.
- بلاغة النور، جماليات النص القرآني، د. نفيد كرمانى، ترجمة : محمد أحمد منصور، محمود محمد حجاج، أحمد عبد النبي معوض، محمد سالم يوسف، كاميران حوج، مراجعة : سعيد الغانمي، منشورات الجمل، بيروت، ط 1، 2008م.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط1، 1994م.
- البلاغة والأسلوبية، د. يوسف أبو العدوس، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1999م.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط1، 1997م.
- البيان والتبيين، تأليف: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1418هـ-1998م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والآداب - الكويت، تحقيق: مجموعة من المحققين، د.ت.
- تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة، سورة التوبة إنموذجاً، د. فخرية غريب قادر، عالم الكتب الحديثة، أريد - الأردن، ط1، 1432هـ-2011م.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (370هـ)، تح: عبد السلام محم هارون، مراجعة : محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1384هـ-1964م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرُّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تح: د. محمد زغلول سلام، ومحمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 2008م.

- جمهرة اللغة، تأليف: أبو بكر بن دريد الأزدي (ت 321هـ)، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1، 1987م.
- خزانة الأدب ولُبُّ لُبَّان لسان العرب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي (1093)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1418هـ-1997م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت 471 أو 474 هـ)، تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، المملكة العربية السعودية، 1992م.
- دور الكلمة في اللغة، تأليف: ستيفن أولمان، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه: د. كمال محمد بشر، الناشر مكتبة الشباب، القاهرة، ط20، 1986م.
- الصّحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف: إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت 398هـ)، تح: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط2، 1399هـ-1979م.
- ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، دراسة بلاغية نقدية، د. محمد الواسطي، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، مكتبة الحرم المكي، الرياض - المملكة العربية السعودية، د.ت.
- علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992م.
- علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، 2001م.
- علم اللسانيات الحديثة نظم التحكم وقواعد البيانات، د. عبد القادر عبد الجليل، دار الأردن، ط1، 1998م.
- العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تأليف: أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (456هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ-1981م.
- قراءات بلاغية، د. فاضل عبود التميمي، دار الضياء، النجف الأشرف، ط 1، 1429هـ-2008م.

- القاموس المحيط، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي (729-817هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2، 1371هـ-1952م.
- كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر، تأليف: أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط 1، 2006م-1427هـ.
- كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، تأليف: عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-175هـ)، تح: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2003م-1424هـ.
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت 711هـ)، تح: يوسف خياط، ونديم مرعشلي، المطبعة المنيرية الكبرى، بيروت - لبنان، ط 3.
- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط 4، 1421هـ-2001م.
- مُجمل اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا اللّغوي (ت 395هـ)، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1406هـ-1986م.
- محاضرات في علم البيان، د. علي عبد مهدي بلبع، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1429هـ-2008م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: العالم العلامة أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت 770هـ)، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط 5، 1922م، 2 جزء.
- المعجم القرآني، دراسة معجمية لأصول ألفاظ القرآن الكريم، تأليف: د. حيدر علي نعمة، د. أحمد علي نعمة، مطبعة السيماء، بغداد، ط 1، 2013م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط 4، 1425هـ-2004م.

- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (295هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، د. جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1431هـ-2010م.
- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، د. حماد صالح خلف الربيعي، مكتبة الحرم المكي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1416هـ-1996م.
- موسيقى الشعر: تأليف : د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1965م.

ثانياً / الأبحاث :

- التصوير بالفاصلة القرآنية (بحث)، أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني، مجلة المهرة، (مجلة علمية محكمة) تصدرها كلية التربية، جامعة حضرموت، س 1425هـ-2005م، ع3.
- ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن (بحث)، نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، دمشق، 1984م.
- الفاصلة وبنية الانسجام الشكلي في سورة الإنسان (بحث)، أ.م.د. إياد عبد الودود الحمداني، م.د. خيرى جبير الجميلي، مجلة ديالى للبحوث العلمية والتربوية (مجلة علمية محكمة)، تصدرها كلية التربية - جامعة ديالى، س 2006م، ع23.